الصحافة والشعر

قالوا لي: اكتب لنا في الصحافة والشعر، ولكن ما هي صلة الصحافة بالشعر؟ يكاد يكون هذا الأمر غريباً في أوله، فالصحافة شيء والشعر شيء آخر، والمسافة بينهما مترامية الأطراف، غير أن الشعر في تاريخنا كان بمنزلة الصحافة في هذا العصر، ولذلك لا أستغرب صلة الأول بالثانية...

لما قال رسول الله لحسان: اذهب إلى أبي بكر، فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهْجُهُم وجبريل معك، لم يكن قوله إلا مثل قول وزير في هذه الأيام لصاحب جريدة: اذهب إلى فلان وخذ عنه أخبار فلان ثم تعرض له في جريدتك، فقد كانوا يستعينون بالشعر على بث دعوتهم وتأييدها، وعلى الغض من عدوهم وإظهار مثالبه، ولا شك في أن الشعر قام بهذا الأمر خير قيام، وهذا ما جعل للشعراء مكانة في عيون الخلفاء والأمراء والعمال، حتى كانوا يفيضون العطاء فيهم ويغرقونهم في مكارمهم، وإذا التفتنا في هذه الأيام إلى الصحافة ورأيناها كيف تُحَسِّن ما يراد تحسينه وتُقَبِّح ما يراد تقبيحه فإنا لا نجد فرقاً بين الصحافة والشعر في هذا الباب، فكما كانوا يكرمون الشعر من

أجل هذا التحسين والتقبيح، فكذلك يكرمون الصحافة في هذه الأيام من أجل الغرض نفسه، ولولا هذا الانتفاع الذي انتفعه الخلفاء بالشعراء لما احتملوا منهم ما احتملوه، فما الذي كان يحمل خليفة مثل عبد الملك بن مروان على أن يسمح للأخطل بأن يقول له: قد يبس حلقي! فمر من يسقيني! ما الذي كان يحمله على أن يلقي عليه من الخلع ما يغمره ويحسن جائزته ويقول: إن شاعر بني أمية الأخطل!.

فالمدح في شعر المتقدمين مثل المدح في صحافة المتأخرين، فرجال السلطان كانوا يحتاجون إلى الشعراء حتى ينشروا حسناتهم في الرعية، والحكومات في أيامنا تحتاج إلى الصحافة حتى تنشر حسانتها في الناس...

ولكن الذي صغَّر أماديح الشعر في العيون وحطَّ من قدر أماديح الصحافة في القلوب أن الشعر ما كان في كل مرة يصور أخلاق الممدوحين على حقائقها، كما أن الصحافة لا تصور في كل مرة أعمال الحكومات على وجوهها، والشعر في بعض الأحيان كان يُحسِّن القبيح فيحسن، والصحافة في بعض الأوقات تُعَظِّم من الأعمال ما يستحق التصغير، وهذا هو الاعتراض على مدح الشعراء في القديم ومدح جماعة الصحافة في الحديث، لأن هذا المدح لا يخلو من انحراف عن الصواب...

أما الشعر الذي وصف بطولة الأبطال فلا اعتراض عليه، كما

أن الصحافة التي تصف محاسن الأعمال على حقائقها لا اعتراض عليها.

ولقد لقي الشعر من العذاب ما لقيته الصحافة منه في هذا العصر، فقد كان الشعراء أجرأ الناس على رجال السلطان، فلذلك كانوا يصبُّون السياط عليهم ويحرقون دورهم ويقتلونهم ولا يغسلونهم ولا يكفنونهم، أو يقذفون بهم في الآبار، ولم ينج من مثل هذا التعذيب شاعر مثل بشار الذي ألقوا جثته في الماء...

وكذلك الصحافة في هذه الأيام فإنها إذا اجترأت في بعض الأحيان على رجال الحكومات وضاقت صدورهم عن احتمال قوارصها عطَّلوها أو حبسوا أهلها أو سلطوا الرعاع عليهم، فبين الصحافة والشعر صلة مستحكمة في الحالات كلها، فالشعر كان أداة لنشر الفضيلة والرذيلة وصورة الحرية والعبودية، وكذلك الصحافة في هذا الدهر فإنها أداة لنشر الحق والباطل وصورة الإصلاح والإفساد.

وكما لم يَعْظُمْ في عيوننا إلا الشعراء الذين نشروا الفضيلة والحرية واستهجنوا الرذيلة والعبودية، وأظن أن أبا العلاء في مقدمتهم، فكذلك ينبغي لنا أن نعظِّم الصحافة التي تنشر الحق وتهجم على الباطل...

النقاد

دمشق - ١٩٥٠/٤/٣

ذكرى ميسلون

كتب شاعر الشام الكبير الأستاذ شفيق جبري عن ذكرى ميسلون يقول:

كلما بعدت عنّا ذكرى ميسلون اشتد أثرها رسوخاً في النفوس، لأنها ترمز إلى فكرة من أسمى الفكره، وهي فكرة الحرية، فقد عشت في تلك الأيام، وشهدت بعيني مقدار تحمس الشعب في الدفاع عن وطنه، ولست أنسى جلسة كنت أجلسها مع إخوان لي في مقهى النصر، كان المتحمسون من فتيان دمشق يمرون أمام المقهى وهم زاحفون إلى ميسلون وينظرون إلينا شزراً، وكأنهم كانوا يقولون لنا بنظراتهم: أندافع عن الوطن وأنتم لاهون في مقاهيكم؟ لقد بلغ التحمس منهم كل مبلغ، والناس في ذلك الزمن بين فئتين: فئة تؤمن بقوة الدفاع، وفئة تؤمن بضعفه، ولا سبيل في هذا المقام إلى الموازنة بين هاتين الفكرتين: فكرة القوة وفكرة الضعف، وإنما أكتفي بالإشارة إلى فناء الشعب في حب حريته، لقد كانت ذكرى ميسلون أليمة، فلم يثبت المناضلون عن الديار إلا ساعات، فقد ذهبت ضحايا كثيرة، وأبعثها على الحزن ضحايا ركبان الإبل من أهل نَجْد، فقد حصدتهم الطائرات حصداً لاستهدافهم فوق إبلهم.

إلا أن اليوم الثقيل على النفوس كان يوم دخول الفرنسيين دمشق الشام، لم تكن وطأة الشمس في تموز بأشد من وطأة الدخول، فالجو كان عابساً والسماء متجهمة والغضب مستفيضاً في الآفاق، وكأنما عبوسَ الجو وتجهُّمَ السماء وغضبَ الآفاق تعبير عن مشاركتها للبلاد في عبوسها وتجهُّمِها وغضبها، فكنت تقرأ الوجوم على الوجوه، وكأن الناس كانوا سكارى، لا ينبسون ولا يتحركون، وإنما عيونهم الحزينة تفصح عن حزنهم، ووجوههم الكئيبة تعرب عن كآبتهم، ولقد استمرت هذه الحالة بضعة أسابيع وازدادت سوءاً لما فرضوا على دمشق الغرامة ووضعوا الحراس على البيوت من السنغال.

كل هذا هين بالنسبة إلى خواتيم الأمور، فقد كانت البلاد كلها قلباً واحداً وهوى واحداً وشعوراً واحداً في الذود عن حياضها مقدار خمس وعشرين سنة، وما زالت تخرج من مظاهرة إلى مظاهرة، ومن احتجاج إلى احتجاج، ومن ثورة إلى ثورة، حتى جلا الفرنسيون عن الشام، ولئن شقيت بالنظر إلى الفرنسيين وهم يدخلون البلاد لقد سعدت بالنظر إليهم وهم يخرجون منها، فغلبت السعادة على ما شعرت به من الشقاوة، ولعل أبلغ عبرة في الخمس والعشرين سنة التي مرت على الشام وهي مغتصبة إنما هي عبرة إلتفاف أهوائها واجتماع قلوبها وتناسق شعورها في دفاع أهلها عنها، فما يُدْخِلُ الضيمَ على استقلال البلاد مثل إختلاف الأهواء وتنافر القلوب وتباعد الشعور.

الأيام ١٩٦٢/٧/٢٤

طبيبك معك

بيني وبين الصديق الدكتور صبري القباني خلاف في الرأي، هو يريد أن يكون طبيبي معي وأنا أريد أن يكون الطبيب في مزاره، لا يراني ولا أراه، لا أراه إلا في أشد الحاجة إليه ولا يراني إلا في أشد المرض، لا أريد أن يكون طبيبي معي لأنه إذا كان معي أفسد عليّ رونق الحياة، إني أنتظر في الصيف الليالي المقمرة في بلودان فإذا بلغت الساعة الحادية عشرة، وخلت الطرق من الناس تركت المقهى، ومشيت لأمتع النظر بمحاسن القمر على رؤوس الجبال وفي بطون الأودية، في حالة مثل هذه الحالة أشعر بغبطة لا يقدر البيان على وصفها، إني أغرق في عالم غير العالم الذي أعيش فيه فأندفع في الأحلام اللذيذة فأحس حينئذ بالحياة، كل ذلك بفضل القمر الذي كان من أول البشرية مصدر وحي الشعراء والعشاق وأهل الفن وغيرهم..

أما الأخ الدكتور صبري القباني فهو يقول لي: حين تضطرب أعصابك.. فتش عن القمر! فالعشاق وأصحاب الأعصاب الرقيقة والحس اللطيف تثور أنفسهم وتضطرب أعصابهم بتأثير أشعة القمر ولا سيما إذا كان بدراً...

إني لا أخالفه في قضايا ترجع إلى العلم ولكني أفضل أن أكون طبيب نفسي، فإذا كان القمر يسليني ويغريني ويوحي إلي الأفكار الحلوة، ويدفع عني الوساوس، فإني أنتظر لياليه مهما يقل العلماء والأطباء، ولا أريد أن أُحْرَم لذاته. هذا هو الخلاف بيني وبين الدكتور صبري القباني، يشهد الله أنه جمع في كتابه الذي أهداه إلي: «طبيبك معك» طائفة من المعلومات بسطها ما أمكنه التبسيط، وسهلها ما قدر على التسهيل، وقذفها ببيان يذوقه كل واحد من الخاصة والعامة، ومهد السبيل إلى التوقي من المرض قبل الوقوع فيه، ولكني على كل حال، أحب أن أكون طبيب نفسي أمشي بدائي ما مشى الداء بي، فإذا لم يمش بي الداء رجعت إلى الطبيب وقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أما إذا كان طبيبي معي فإني أحس بالمرض في كل ثانية، وأشعر بالضعف في كل لحظة، وأرى الموت يحيط بي في كل طرفة عين، فإذا وقعت عيني على الذباب قال لي الطبيب إنه يحمل أكثر من ثلاثين نوعاً من الجراثيم، فأحس بأن هذه الأنواع الثلاثين أخذت بمخنقي، فلا أرى إلى النجاة منها سبيلاً، ومهما يَقْوَ العلم فلا يزال الذباب بين ظهرانينا، ولكن للجسم مناعة، فهو ينخفض ويرتفع ويضعف ويقوى ويفسد ويصلح، وقد أفضل أن أجري على أحد أطبائنا القدماء أعالج جسمي قبل كل شيء بالرياضة والغذاء، فإذا تعذر الشفاء استعملت الدواء البسيط، فإذا لم أشف

رجعت إلى الدواء المركب فلا أحب أن يكون طبيبي معي...

وإني لأشفق على الأطباء المساكين، فإن بينهم وبين أهل الأدب عداوة من قديم الدهر، فقد وقعوا في ألسنة الكتب والشعراء، فمرة كانت أسماؤهم مقرونة بعزرائيل:

يمشي وعزرائيل من خلفه مشمر الأردان للقبض!

ومرة كانت مقرونة بالفناء والهلاك:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعضُ الشر أهون من بعض

هذا جزاء رجال يخفون عن الناس آلامهم ويعنون بصحتهم ويجهدون في إطالة أعمارهم.

أما الفرنسيون فقد تحدى الأطباء كاتبهم الخالد «مونتان» فقال: هل يستطيعون أن يدلُّوه على بيت دخله الطب فاستطاع أن يذوق فيه طول الحياة ثلاثة من بطونه متعاقبون، إنه يحب الأطباء ويعرف منهم الكثير من الشرفاء، فهو لا ينقم عليهم ولكنه ينقم على فنهم. ولم يكن «فولتير» أرأف بالطب من «مونتان» فقد قال: جربت الماء البارد والماء الحار وجربت ضروب القواعد، الحسنة منها والسيئة، ووقعت في أيدي الدجاجلة والأطباء والطهاة، فمن ذِكْرِه الأطباء في جنب الدجاجلة والطهاة يعرف القارئ مقدار رأيه في الطب، ولم ينج من شره أبرع الأطباء: فالطبيب الفلاني شفى المريض لأنه لم يصنع به شيئاً...

معاذ الله أن يكون رأيي في الأخ الدكتور صبري القباني رأي

الخبثاء من الكتّاب والشعراء، فإني أشكر له شكراً جزيلاً فقد تعب في كتابه اللطيف: «طبيبك معك»! وبان عليه الكثير من التتبع والعلم والذوق، ولكن فليعذرني إذا قلت له: لا أريد أن يكون طبيبي معي!.

النقاد

١٩٥٣/٤/١٢

فـــلاح

كـان لدخـول «بونسـه» في الأكاديميـة الفرنسـية مـن أول هـذه السـنة روعـة خاصـة، لقـد خطـب خطبتـه فكـانت حديـث النخبـة مـن الأدبـاء، وإذا كـان المجـال لا يتسـع للتنويـه بهـذه الخطبـة فـلا أقـل مـن الإفصـاح عـن شـعوري بمحاسـنها، فهنيئـاً للغـة الفرنسـية مـا رزقتـه مـن المرونـة والنعومـة، هجـم «بونسـه» علـى موضـوع حـرج، ولكنـه بسـبب حذقـه للسياسـة ومهارتـه في أسـاليبها خـرج منـه في حـذق ومهـارة، فاسـتطاع أن يعـد إلى المارشـال "بتـان" مكانتـه واسـتطعت أن أنعـم سـاعتين بقـراءة خطبـة نفـض صاحبهـا رجـلاً مـن رجـال فرنسـة حتـى أصبـح مـاثلاً لذهـني وعيـني.

موضوعـي في خطبـة «بونسـه» لفظـة جـاءت فيهـا، قـال في المارشـال «بتـان» إنـه منحـدر مـن أهـل فلاحـين، فقـد تعـاقبت منهـم ثلاثـة بطـون قبـل بطنـه علـى أرض واحـدة حرثوهـا، ومزرعـة واحـدة فلحوهـا، والمارشـال نفسـه فـلاح في كثـير مـن أمـوره، فـلاح في تركيبـه وصحتـه وتوازنـه وانتصـاب قامتـه، وبسـاطته وإدراكـه لواقـع الأمـور، وكراهيتـه للألفـاظ الضخمـة، ونبلـه الطبيعـي، وحـذره وحيلتـه، وحبـه للسـكوت، والحـرص علـى السـر، والملاحظـة الخبيثـة، والنكتـة الحـادة،

فلاح في وجله المخبوء تحت ستار من رباطة الجأش، فلاح في بعض خشونة الكلام، وفي نظر رجل من هذا الأصل لا يكون الوطن فكرة مجردة، ولكن الوطن إنما هو قبل كل شيء، الأرض التي لا يحملها صاحبها إذا خرج منها بين أطراف نعله، الوطن إنما هو في نظره ملك قيّم يذود صاحبه عن كل جزء من أجزائه.

لقد استوقفتني كلمة، فلاح، وأوحت إلي طائفة من المعاني، ومهدت لي سبيل التأمل، وفتحت لي باب المقابلة، قلت في نفسي: لو قال واحد منا للآخر في مقهى من المقاهي إنك فلاح، لتناثرت الكراسي على الرؤوس، وكثر الشتم والقذف، واشتد اللبط والخبط ولما حُلّتْ مُعضلةُ هذه اللفظة إلا في «نظارة» الشرطة، ولو قال واحد منا للأخر في مجلس من المجالس الرفيعة إنك فلاح لوقع الاحتجاج والإعتراض والانسحاب...

أما «بونسه» فقد عرض على ذهنه مفردات اللغة الفرنسية بمجامعها، وأحب أن ينتخب منها لفظة يكرم بها المارشال «بتان» ويعظمه ويعلي من شأنه وقدره، فلم يجد أكرم من لفظة الفلاح، فاللفظة الواحدة التي يكرم بها أعاظم القوم في أمة من الأمم يحقر بها الناس في أمة أخرى، واللفظة واحدة لم يتغير معناها، وإنما الذي تغير إنما هو نظر الناطقين بها، فالألفاظ تعيش في كل ذهن وكل عصر وكل أمة عيشة خاصة، ومعانيها تختلف على اختلاف الأذهان والعصور والأمم، وأكثر التناحر في هذا العالم سببه سوء

فهم هذه المعاني.

ينظر الفرنسي إلى الفلاح نظرة خاصة، فيها الكثير من التكريم والتعظيم، فهو على الفلاح يعتمد في الحصول على لبنه وخبزه ولحمه وفواكهه وبقوله ومواشيه، وإلى الفلاح يلجأ في التمتع بحسن الهواء وعذوبة الماء وترويض الذهن بعد التعب، فالفلاح إنما هو جزء من كيانه، جزء من وطنه، على أنّا قد نجد لهذه الاعتبارات كلها أثراً في وطننا، فالذي يقدمه الفلاح في فرنسة يقدمه في بلادنا نفسها، ولكن حرمتنا للفلاح تختلف عن حرمة غيرنا له من الأمم، وقد يجوز أن يكون السبب في قلة هذه الحرمة ممتداً إلى عصور قديمة، ولكن من المحقق أن الفلاح إذا حوِّط برعاية مثل الرعاية التي يحوط بها في بلاد الأوادم فاشتد الاهتمام بصحته وتربيته وتثقيفه وتغذيته، فعرف أنه شيء في هذا الوطن، لا بل أنه أعظم شيء فيه، إذا وقع هذا كله احترمه الناس فخرج من مستوى ملآن من التحقير والاستخفاف، إلى مستوى ملآن من التعظيم والتوقير، حتى يتمنى كل واحد منا أن يكون فلاحاً وأن يقول فيه البلغاء ما قاله «بونسه» في المارشال...

النقاد

١٩٥٣/٣/٨

بين نارين

لزمت داري في جمعة من الجمع القريبة لأن السماء كانت عابسة، فأوقدت النار في غرفتي وأخذت أملأ العين من سرو باسق في جنينة غير بعيدة عني، ومن جبل أجرد من وراء هذا السرو، فازدحمت في ذهني صور مزارع ضاحكة وصحارى أنيسة في أميركة، فأردت أن أبدد هذه الصور بيسير من القراءة حتى لا يشتد الشوق إليها فتشتد الوحشة، فلم أجد إلى جنبي إلا كتابين: كتاب جمع اليهودية والنصرانية وهو «التوراة والإنجيل»، وكتاب عرض غريزة الحب في أصرح معارضها صاحبه كاتب فرنسي. أما الكتاب المقدس فقد قال فيه أحد كتاب فرنسة البلغاء: إنه ينبوع تفيض منه عبقرية الشعر والأدب، فأحببت أن أقف على طبيعة هذا الينبوع، وأما الكتاب الثاني فقد اقتنيته من ثلاثين سنة وقرأته مرة، ثم وقع عليه نظري عرضاً يوم الجمعة فرأيت أن أعود إلى قراءته.

لو قرأ كتاب غريزة الحب أي واحد منا لقال فيه إنه فظيع، لأنه كشف عن بعض خلق المرأة ومزاجها وطبيعتها، وضرب أمثالاً واقعة حتى يخيل إلينا أن المرأة أمامنا في صورتها الناطقة، ولست أدري هل تطلق صفة الفظاعة على هذا الكتاب حقاً أم باطلاً، لقد

عرض فيه صاحبه جملة خواطر في فلسفة الحب الحديث ببارِيز كان يدونها كل يوم، وقد نجد بين الآراء المبثوثة فيه هذا الرأي: الكاتب الجدير بأن يمسك القلم بيده إنما هو الكاتب الذي جعل أول واجبه وأخر واجبه أن يكون صاحب غاية خلقية، ولكن من هو الكاتب الخلقي في نظره؟ إنه الكاتب الذي يعرض علينا الحياة على حقيقة وجهها دون زيادة ولا نقصان. لا شك في أن عرض الحياة على شكلها المكشوف لا يخلو من كثير من الإعتراضات، فإن الحياة على هذا الشكل قد تشتمل على أمور تكاد المعدة تنقلب على صاحبها من قبح هذه الأمور، إلا أن الكاتب دافع عن مذهبه دفاعاً طويلاً فمن قوله: إن منع صاحب الفن عن حق استعمال الحرية في كتابه إنما هو منع له من حق استعمال الإخلاص الذي هو فضيلة من فضائل الكتاب ورأيه أن يحل هذا المشكل، مشكل عرض الحياة على حقيقة وجهها كما كان «نابليون» يحل مشاكل قانونه، فإنه كان يتصور قبل وضع القانون الفلاح أو صاحب رأس المال أو النبيل الذي يطبق عليه القانون، والكاتب ينبغي له أن يتصور شاباً أميناً عمره خمس وعشرون سنة قبل أن يعرض عليه كتابه، فإذا فكر هذا الشاب بعد الفراغ من آخر ورقة من أوراق الكتاب في مسائل خلقية تفكيراً فيه الكثير من الجد فالكتاب خلقي.

قد يجد بعض الكتّاب ورجال التربية في عرض الحياة على

شكلها المكشوف فائدة من الفوائد، فإني أذكر أني زرت في سنة من السنين متاحف سراي عابدين، في قاعة من القاعات صور الأمراض الزهرية، وإذا قلت إن هذه الصور يقشعر لها جلد الإنسان فلا أبالغ في قولي، على أنّ أبلغ وصف لهذه الأمراض لا يؤثر في الذهن تأثير هذه الصور المخيفة.

ولقد جروا في بعض مدارس أميركة وثكنها على عرض الحياة على حقائق وجوهها فقد زرت مدرسة من المدارس، فقيل لي إن المراحيض لا حواجز لها فالتلميذ يقضي حاجته بمرأى من التلميذ، وحجتهم في ذلك أن الطالب إذا رأى شيئاً ألفه حتى لا يخطر له على بال، ولكنه إذا منع عن أمر اشتد تفكيره فيه.

وإذا كان عرض الحياة المكشوفة لا يخلو من فائدة فإنه لا يخلو أيضاً من محذور فقد قيل إن تصوير هوى من الأهواء فيه خطر، وخطره أنه يدعو إلى هذا الهوى، فإن تصوير ما كان يفعله صاحب كتاب غريزة الحب في جسم المرأة التي كان يحبها يجر كل قارئ إلى التفكير في هذا الفعل نفسه، إلا أن جعل صاحب الفن مسؤولاً عن هذه الدعوة قد يجر إلى جعل الأدب كله مسؤولاً عن مثل هذه الدعوة.

وسواء أكان عرض الحياة على شكلها الواقع يشتمل على فائدة أم كان يشتمل على محذور لم يخل أدبنا في القديم من هذا الطرز، فإن تسمية الأشياء بحقائق أسمائها فاشية في كتب الأدب ولا سيما

كتاب الأغاني، والإنسان يكاد يحار في هاتين النارين: نار عرض الحياة المكشوفة ونار ستر الحياة، فإذا عرضت الحياة على مقابحها كادت النفس ترتعد من هذه المقابح، وإذا سترت صورها القبيحة اشتد الميل إليها لأنها ممنوعة، وإني لفي مثل هذه الحيرة إذ فتحت الكتاب المقدس فإذا فيه: وأما الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا... فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون... فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً منها فأكل فانفتحت أعينها....

رحم الله الشاعر:

والشيء يرغب فيه حين يمتنع!

النقاد

١٩٥٤/٢/٧

إذا زال ملك إسرائيل

في هـذه الليـالي الطويلـة، ليـالي الشـتاء، وفي هـذه الظلمـة الشـديدة، ظلمـة الشـوارع أعـز مكـان غرفـة صغـيرة في الـدار، علـى مقربـة مـن كـانون كلمـا ذابـت فيـه حطبـة قذفـت في الكـانون حطبـة، وخـير جليس كتـاب يجمع أفكـارك ويركزهـا.

في خزانـة كتـبي الفقـيرة كتابـان اشـتريتهما مـن عشـرين سـنة ولم أقرأهما حتى علاهما الغبار وهمـا:

الأول: حين يكـون إسـرائيل ملكـاً.

والثاني: حين لا يكـون إسـرائيل ملكـاً، صـاحب الكتـابين الأخـوان "تـارو".

قلـت في نفسي: أبـدأ في هـذه الليلـة بالكتـاب الثـاني: إذا زال ملـك إسـرائيل، تفـاؤلاً بـزوال هـذا الملـك، ومـا كنـت أعلـم أن مـا ينطـوي عليه هـذا المؤلَّف الصغير مـن الصـور الراعبـة أكـأب مـن كآبـة الشـتاء.

إنـك لا تكـاد تـرى رجـلاً يلبس معطفـاً ضاربـاً إلى الخضـرة، وعلـى رأسـه قبعـة كالبطيخـة منحـدرة إلى أذنيـه، وتحـت أبطـه مظلـة كأنهـا خيمـة مطويـة وقدمـاه تغرقـان في حـذاء مسـطح، إذا مشـى صاحبهمـا

طرحهما ذات اليمين وذات الشمال، يحمل على طهره المستدير شقاوة العصور التي يجرها وراءه، إنك لا تكاد ترى رجلاً هذه صورته إلا عرفت أنه من اليهود.

وإنك لا تكاد تجد رجالاً لا يستطيعون أن يعيشوا إلا على أنقاض غيرهم من الرجال والأمم، تدفعهم غرائزهم إلى التعرض لكل أصالة في الجماعات التي يقيمون بين ظهرانيها، فما يزالون يقعون في هذه الجماعات كما يقع السوس في الخشب حتى ينخر، فإذا تفتتت الجماعات التي يعيشون بينها وأضاعت خصائصها وتقاليدها بقي هؤلاء الرجال وحدهم محافظين على طبائعهم الخاصة في مجتمع جديد لا أثر فيه لغيرهم، إنك لا تكاد تجد رجالاً من هذا القبيل إلا عرفت أنهم يهود.

لقد نكبوا ألمانية وهدموا عزائمها في الحرب الأولى وحالوا دون استمرارها في المقاومة.

لا يستطيع اليهود أن يعيشوا مع أحد، ولو أرادوا هذه العيشة لتعذر عليهم ذلك، قد يقولون إنهم يحبون الشعب الذي يعيشون معه، وقد يتصورون أنهم يحبونه، ولكن غرائزهم غالبة عليهم فهم لا يحبون أحداً، لقد استطاعوا أن يدخلوا في الفلسفة الألمانية ويذوقوها، ولقد استطاعوا أن يألفوا موسيقى الألمان ولكنهم لم يكونوا ألماناً في يوم من الأيام، فما نشأت في قلوبهم عاطفة ألمانية ولا نشأ في رؤوسهم فكر ألماني.

ما فتحت البلاد لهم أبوابها على مصاريعها إلا ندم أصحاب هذه البلاد على تلقيهم في آفاقهم، لقد أغلقت أميركة أبوابها في وجوههم يوم النكبة، ثم فتحتها لهم، ولكن الذين يزورون أميركة ويخالطون طبقات الناس فيها يعرفون مقدار كراهيتهم لليهود وضجرهم منهم، وسيندمون على الترحيب بهم وأظن أنهم شرعوا يندمون.

هذه صورة التقطت بعضها وأنا أطالع كتاب: إذا زال ملك إسرائيل، أقرأ صفحة وأنظر إلى نار الكانون، فما أشد الشبه بين جحيم هذا الكانون وبين جحيم هذا الصنف من البشر، إلا أن نار الكانون أخذت تنطفئ ولكن نار الصهيونية كلما قربت من الهمود أججّها الشياطين من حولهم.ادعى جماعة صهيون أنهم دفعوا إلى العرب أثمان الأرض في فلسطين، وادعوا أنهم دفعوا أكثر من أثمان الأرض ولكن صاحب كتاب: إذا زال ملك إسرائيل، قال لهم: ليس من نسبة بين مال تدفعونه إلى أصحاب الأرض وبين وطن نهبتموه نهباً، وأكبر دليل على كره العرب لكم هذه الاضطرابات وهذه المذابح التي تشهدونها في فلسطين، ولو خرج الإنكليز منها لما بقي صهيوني واحد منكم بعد أربع وعشرين ساعة من خروجهم!.

لقد كان الإنكليز يعرفون ذلك فلم يخرجوا من فلسطين إلا بعد أن مهدوا السبيل إلى خروج العرب منها-

ولكن العرب سيعودون إلى وطنهم، لقد طفقت نار الصهيونية تنطفئ كما انطفأت نار هذا الكانون.

النقاد

١٩٥٦/١٢/١

ليس في الأدب قديم وحديث

اجتمع مندوب «مجلة الإذاعة السورية» إلى الأستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب في الجامعة السورية وعضو المجمع العلمي العربي، ووجه إليه سبعة أسئلة، أجاب عنها الأستاذ العميد على هاتين الصفحتين:

– متى شرعتم في الاشتغال بالأدب؟

– من اثنتين وأربعين سنة.

أذكر أن أول مقال نشرته كان في جريدة "المهذب" لصاحبها الأب جورج الكفوري. كانت هذه الجريدة تصدر في زحلة، ويكتب فيها أكابر كتاب تلك الأيام، وفي جملتهم إبراهيم الحوراني، وكانت تنشر أحسن الشعر، كشعر محمود سامي باشا البارودي وغيره.

كتبت بعد خروجي من المدرسة مقالين: الأول في الفلسفة، والثاني في التاريخ الطبيعي، وقد كنت حديث العهد بدراسة هذه الأمور، ولولا تعطيل الجريدة بسبب الحرب الكبرى لواظبت على خوض هذه الموضوعات ولانصرفت إلى الفلسفة أو إلى ناحية من نواحي العلم:

إني أحب الاختصار:

– ما هو أحب ألوان الأدب إلى نفسكم... ولماذا ؟

– بدأت بكتابة المقال فألفت هذا النوع لأنه مناسب لمزاجي، إني أحب الاختصار في الكلام والمقال يصل إلى الفهم رأساً دون شيء من التطويل، وعلى هذا يكون تأثيره أشد.

أما القصة والرواية فلم أعالجهما، وليس معنى هذا أني أجهل ما ينطوي عليه نوعهما من تحليل لفكرة من الفكر أو لعاطفة من العواطف في الفلسفة والعلم والتاريخ وما شابه ذلك، إلا أني لم آلف هذا النوع من الأدب، وإنما ألفت كتابة المقال والدراسات الأدبية والكتابات الممزوجة بخيال معتدل واقع، وكثير من رجال الأدب لم يألفوا الرواية، فالشدياق وهو من أئمة القرن الماضي لم يحب الرواية على الرغم من تجدده، فهو يميل إلى الموسيقى وإلى التمثيل، أما الرواية فإنه يرى أن أصحابها ليسفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والسمين، وهذه العبارة إنما هي عبارته وهو يريد بقوله: يدنقون يسفّون لدقائق الأمور، وأن القارئ لا يكاد يصل في الرواية أو القصة الطويلة إلى مقطع فيه تحليل دقيق أو وصف عميق إلا بعد أن تطلع روحه.

على أن بعض الأدباء في هذه الأيام يرون أن الرواية قد دنا أجلها، فالناس ملوا هذا النوع من التكلف في اختراع الأبطال، والبعد عن الحقيقة، وأخذوا يفضلون كتابة المذكرات، لأن أصحابها يواجهون فيها القراء مواجهة بعواطفهم وأفكارهم فهي

أقرب إلى الحياة الواقعة.

القديم والحديث:

-كيف يجب أن تكون العلاقة بين الأدب المعاصر وبين الأدب العربي القديم ؟

- ليس في الأدب قديم وحديث، وإنما هذه الأمور نسبية، فكثير من أدبنا الذي نراه الآن قديماً كان حديثاً في عصره، فالأدب ينتقل من طور، إلى طور ويخضع لعوامل شتى، فقد طلع علينا العصر الحديث بأفكار ونزعات لم تعرفها العصور القديمة، فلا يستطيع أديب هذا العصر التخلص منها، ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن ينكر الماضي الذي خلف له ميراثاً فنياً ألفناه، واتصل بنفوسنا وأفهامنا، فنحن نحافظ على روح هذا الميراث على قدر الإمكان دون شيء من الجمود، فإذا أردت رأياً أوضح فإني أقول لك إني لا أستغني عن الأدب القديم.

الشعر العربي:

- في الشعر العربي المعاصر الآن ثورة على القواعد الكلاسيكية وعلى القوافي، وقد تتعدى هذه الثورة ذلك إلى الأوزان، فهل ترون أنها ثورة غنى للشعر العربي، وتحرر... أم أنها ثورة سطحية وعامل هدم في عبقرية الشعر العربي المتوارث ؟

- اسمح لي بأن أقول لك إني أستغرب هذه الأمور كل الاستغراب.

هل مقومات الشعر الأوزان وحدها أو القوافي وحدها ؟ فإذا فرضنا أنا اخترعنا أوزاناً مناسبة لثورة هذا العصر وقوافي موافقة لآذان أهله، فهل يصبح الشعر كاملاً بهذه الأوزان وبهذه القوافي؟

في الشعر شيء غير الوزن وغير القافية، الشعر يحتاج إلى حس قوي وإلى ذوق لطيف وإلى خيال معتدل، وإلى فكر ناضج، وإلى عاطفة خالصة، فإذا ماتت فيه هذه الأمور كلها فما قيمته؟ ليس عيب شعرنا وزنه ولا عيبه قافيته، ففي أوزاننا القديمة وفي قوافينا القديمة شعر يكاد يكون من أرفع الشعر، فهو إذا نقل إلى لغات أجنبية أعجب أصحاب هذه اللغات بسموه، أفتريد أن أقرأ لك أبيات أبي عبد الله الأربلي في الحب:

ربّ دار في الفضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها

فماذا يعيب هذه القصيدة، أيعيبها وزنها، أم تعيبها قوافيها؟ وهل يستطيع عصرنا أن يخترع لمثل هذا الشعر الرفيع أوزاناً أصلح وقوافي أتم ؟

فأرجو أن تمر بهذه الثورة التي أشرت إليها، فالشعر الحديث لا يفتقر إلى أوزان ولا إلى قوافي، وإنما يفتقر إلى خصائص الشعر الصحيح.

التأثر بالآداب الأجنبية:

– من زاوية يجب أن يكون تأثر الأديب العربي بالآداب الأجنبية ؟

أكثر الآداب قد أثر بعضها في بعض، وشرح هذا الأمر يطول،

أما من أية جهة يجب أن يكون تأثير الآداب في أدبنا فإني أرى أن يكون هذا التأثير من الجهة التي يفتقر إليها أدبنا.

فكل أدب يقتبس عن غيره ما يحتاج إليه فإذا كان الأدب مبنيّاً على العقل وحده فقد يجوز أن يمله الناس وأن يفتشوا عن أدب فيه بعض الخيال.

في كل أدب أجنبي خصائص، فإني أعتقد أن الأدب الفرنسي قد ينفعنا من جهة الدقة والوضوح فأكثر كتاباتنا جامحة، فالرجوع إلى الأدب الفرنسي يفيدنا من ناحية الدقة ومن ناحية الوضوح..

والأدب الروسي يشتمل على نزعة إنسانية، فيه عطف على الفقير وعلى المريض وعلى الجوعان، فالاقتباس عن هذه النزعة يقوي من أدبنا النزعة الإنسانية.

والأدب الأميركي فيه صورة للرجولة والاعتماد على النفس والإنصراف إلى العمل والإنتاج، فاللجوء إليه يخلق في أدبنا هذه الظواهر القوية.

فأنت ترى من هذا كله أننا لا نستطيع أن نحدد الجهة التي يجب أن نقف عندها في الإقتباس، فنحن نأخذ عن كل أدب مقدار ما نفتقر إليه ومقدار ما يناسب أفراحنا وأذواقنا وأخلاقنا وطبائعنا وثقافتنا وتربيتنا وقوميتنا وأشكال هذه الأمور كلها.

.. للعامة، أم للخاصة ؟

– أثيرت في الآونة الأخيرة قضية الأديب، وهل يكتب للعامة أم

للخاصة، فهل تتفضلون بالفصل في هذا الموضوع.

– ما هو الأدب، إن هو إلا تصوير الحياة كلها، فالأديب يكتب للخاصة وللعامة. وليست المشكلة مشكلة الطبقة التي يجب على الأديب أن يكتب لها، وإنما المشكلة مشكلة الأسلوب الذي يجب أن يكتب به. وإني أرى أن بعض الأدباء قد استطاعوا أن يكتبوا للخاصة وللعامة في وقت واحد، والفضل في ذلك يرجع إلى بساطة أسلوبهم وإلى قدرتهم التي أفضت بهم إلى هذه البساطة، أما الذين يريدون أن يترفعوا عن المستوى العام بشيء من التحذلق في الكتابة، فهؤلاء لا يخلد أدبهم خلود أدب غيرهم الذين ينحدرون إلى العامة دون أن يفقدوا بلاغة الخاصة.

الحرية قبل كل شيء:

– يتساءل محبو الأدب: لماذا احتجب الأستاذ شفيق جبري عن الميدان الأدبي ؟.. وإنه لتساؤل في محله أرجو باسم محبي الأدب أن تجيبوا عنه بصراحة.

– الأدب يتطلب قبل كل شيء الحرية التامة، ولست أعرف أياماً ماتت فيها الحرية مثل هذه الأيام، فلا يستطيع الإنسان أن يصرح برأي من الآراء إذا كان هذا الرأي لا يعجب بعض الناس، في دمشق خمس وعشرون جريدة، ولكل جريدة نزعة، فإذا أفضيت برأي يخالف جريدة من الجرائد نهشوك نهشاً. لقد زرت الولايات المتحدة وجمعت طائفة من خواطر الرحلة، وما أزال أتردد في طبعها على الرغم من نزاهتها واستقلال صاحبها، فهي ما تزال نائمة في

مكتبي، فالإنسان في هذه الأيام إذا ذهب إلى روسيا ووصف ثلج سيبريا قالوا فيه إنه شيوعي، وإذا ذهب إلى أميركة وتغنى بشلالات ألنياجارا قالوا فيه إنه أميركي، وإذا ذهب إلى نجد وتمتع من شميم عرارها قالوا فيه إنه سعودي، وإذا ذهب إلى العراق وملأ عينه من نخيل دجلة والفرات قالوا فيه إنه هاشمي، وهذا ما يحمل العقلاء على الزهد في الكتابة حرصاً على سمعتهم، فنحن لا نُقَدّر الديمقراطية حق قدرها ولا نعرف احترام الآراء.

أفرأيت لماذا زهدت في الأدب وفي الكتابة؟ أعطني الحرية حتى أكتب ولا شيء سيملك قلبي مثل الكتابة، ولكني لا أرى الحرية من حولي، ولست مستعداً للشتم والقذف والنهش، فإن بعض الناس غايتهم التهديم حتى لا يبقى في البلاد مفكر يبين رأيه بحرية، وحتى تخلو البلاد لهم ولأمثالهم.

هذا من جهة حرية الرأي، أما من جهة ثانية فإن الذي يزهدنا في الأدب كساد أسواقه، فأين دور النشر؟ فقد يكتب الكاتب كتابه وينتظر خمس سنين فلا يبيع ربع ما طبع، فلا حرية تساعد على التأليف، ولا قراء يشجعون على هذا التأليف، على أني أحمد الله تعالى على قيامي بالتدريس وفقاً للوجدان وهذا حسبي.

مجلة الإذاعة السورية
١/تموز/١٩٥٥

مأتم رأس السنة

هكذا خطر على بالي أن أجعل عنوان هذا المقال،فلماذا قلت: مأتم رأس السنة، ولم أقل: عيد رأس السنة، وما أعظم الفرق بين هذين اللفظين. لفظ يصور بشاشة الحياة أنطق تصوير، ولفظ يمثل عبوس الحياة أبلغ تمثيل، لماذا ذهب ذهني في رأس السنة إلى الحزن ولم يذهب إلى الفرح، ففضلت كلمة المأتم على كلمة العيد؟ لقد وجدت هذا التفضيل من بدائه الأمور، لأني من أول يوم من أيام السنة أشعر بأني ودعت جزءاً من عمري، إني أشعر بأني بعدت بعض البعد من الحياة، ودنوت بعض الدنو من الموت، فكيف أفرح بالبعد من الحياة وكيف لا أحزن للقرب من الموت، قلت ذات يوم لصديق: أفلا ترى أن الأجدر بنا في رأس السنة أن يطوف بعضنا على بعض وأن يعزي بعضنا بعضاً، لأننا في أول السنة يذهب شيء من حياتنا فيلزمنا أن نبكي على الذاهب منها، فلم يوافقني على هذا القول، وهو يرى أن الناس يهنئ بعضهم بعضاً في رأس السنة أملاً أن تتجدد حياتهم، فالكآبة تصبح فرحاً واليأس يصبح رجاء، ولكني لم أجد شيئاً من ذلك، فإن حياتنا لم تتغير أوضاعها من ثلاثين سنة، نبكي في يوم من أيامنا فإذا ذهب هذا اليوم بكينا

عليه، فلا نزال نبكي على الأيام الماضية، ولا عبرة بهذه القصور التي أنشأوها في دمشق، وبهذه الجواد التي وسعوها، لأن الحياة تشتمل على أشياء أعلى قيمة من قصور فخمة وجواد واسعة، نعيد في رأس السنة تشبهاً بأهل الغرب وننسى أننا نعيش في الشرق، إنهم يُعيدّون في رأس السنة، ولكن حياتهم غير حياتنا، اسأل الذين ذهبوا إلى باريز وعاشوا فيها حيناً من الدهر، إنهم يقولون لك تتجدد حياة المرء فيها في كل طرفة عين، في كل دقيقة تقع العين فيها على مشهد جديد في كل ناحية من النواحي، فلا تجد فيها من يقول لك: سئمت تكاليف الحياة، ولا تجد فيها من يقول لك: إن الحياة ذميمة، فالناس كلهم أو أكثرهم يتبين السرور في وجوههم، ويظهر النشاط على حركاتهم، فإذا عيَّدوا في رأس السنة فإنهم يأملون أن يزداد هذا السرور في سنتهم الجديدة وأن يعظم نشاطهم فيها، وهم لا يفكرون في الموت لأنهم يجدون في لهو الحياة ما يشغلهم عن هذا التفكير، أما نحن في هذا البلد الطيب، حرسه الله، وفي هذه الجمهورية المباركة، أيدها الله، لم تتغير حياتنا من ثلاثين سنة، لا بل من مئات السنين، فلا يجتمع صديق إلى صديق إلا شكا إليه ضجره من الحياة وملله من وحدة وجوهها، فكل شيء عندنا ثابت لا يتغير، فالمقهى الذي يتردد إليه المرء واحد لا يتغير، والمرقص الذي ينتابه واحد لا يتغير، والمشرب الذي يذهب إليه واحد لا يتغير، والمطعم الذي يختلف إليه، ألوانه واحدة لا تتغير، فالوحدة شيء أصبح من دمنا ولحمنا وعظمنا، ألفتنا وألفناها

وأحبتنا وأحببناها، فلا هي مفارقة لنا ولا نحن مفارقون لها ومع هذا كله تجدنا في رأس السنة نعيِّد ونهنئ، فلماذا هذا العيد ولماذا هذه التهنئات!..

في أول يوم من أيام السنة يذهب جزء من عمرنا وأي مشهد من مشاهد الحياة يعوض من هذا الجزء الذاهب؟ لقد مرت على هذه البلاد ثلاثون سنة لم يتغير فيها شيء من حياتنا العامة، أستغفر الله، كانت هذه الحياة في الماضي أصلح منها في الحاضر في كل ناحية من هذه النواحي، فأي أمل لنا في تجديد الحياة في رأس السنة. ولقد عنيت ببعض الدراسات في هذه الأيام، وقد كشفت لي هذه الدراسات عن أسرار في وحدة أخلاقنا في الماضي والحاضر في كل شيء، في فقدان المبدأ العام في سياسة الدولة، وفي التناحر على المناصب، وفي الحرص على الأمور الخاصة، وفي الاستخفاف بالأمور العامة، فإذا لم تتغير أخلاقنا من ألف سنة، أو إذا لم تستطع ألف سنة أن تغيّر أخلاقنا، فما أظن أن السنة الجديدة التي نستقبلها تغيِّر من هذه الأخلاق، فهذا العيد الذي نعيِّده اقتبسناه عن الغرب، ولكن الراهن أن كل شيء يجيئنا من الغرب تُشوَّه محاسنُه في آفاقنا. لقد وقع نظري في مقهى من المقاهي القديمة في دمشق وهو «الديمتري» على صور في الجدار معلقة، منها صورة عنترة وعبلة وشيبوب وأمثالها، وقد أقحم المسكين «فيكتور هوجو» في هذه الصور، فسألت صاحب المقهى عن الصور لأعرف رأيه في

«هوجو» وغمزت رفيقي وقلت له: اسمع كيف يصبح «هوجو» في دمشق، فقال لي صاحب المقهى: هذه صورة عنترة وهذه صورة فلان وهذه صورة فلان، ولما بلغ إلى صورة هوجو قال: وهذه صورة شيخ القهوجية في باريز!

وهكذا نجد «هوجو» الذي يمثل جزءاً من مجد فرنسا يصبح في مقهى «الديمتري» في دمشق شيخ القهوجية في باريز، فكل شيء يجيئنا من الغرب تعكس محاسنه في الشرق، وعادة عيد رأس السنة من جملة هذه الأشياء، إنهم يعيِّدون في رأس السنة أملاً أن تتجدد حياتهم في كل نواحيها فلا يحسون بكآبة الموت ولا بدنو الأجل، ونحن نعيِّد في رأس السنة وليس بعد العيد إلا دنو الأجل وكآبة الموت!.

النقاد

كانون ثاني ١-١٩٥٩

شفيق جبري يكتب «لليوم» في أميركا
اللغة التي يفهمونها؟
عرفها اليهود، فمتى يعرفها العرب؟

أحببت في هذا الصباح الضاحك وأنا على القطار أقطع المسافة بين مدينة «سياتلي» التي خرجت منها أمس، وبين المدينة التي أتوجه نحوها وهي «سولت ليك» أي البحيرة المالحة، أحببت في هذا الصباح وأنا أضرب بعيني في سهول منبسطة ترى فيها البقر، كل فلاح ومزرعته أمامه، وبيته في هذه المزرعة، وبقراته حوله، يشعر بأنه ملك على وجه الأرض.

أحببت أن ألخص حديثاً دار بيني وبين أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة ولاية «واشنطن» في مدينة «ستانلي».

لأول مرة أسمع كلمة العرب في المجالس الخاصة، فإن كلمة الإسلام غالبة على كلمة العرب، أما في الصحف فقد تأتي كلمة العرب كثيراً وأذكر أنني من شهرين قرأت في جريدة «نيويورك تايمس» خبراً خلاصته أن العرب احتجوا على أعمال إسرائيل، ولكن إسرائيل ماضيه في أعمالها لا تبالي بهذه الاحتجاجات،

ولست في حاجة إلى أن أبيّن للقارئ الكريم شعور كل عربي في إطلاعه على مثل هذه اللهجة في جريدة تكاد تكون أكبر جرائد العالم.

الأستاذ الذي أنقل الحديث عنه يحب العرب، وقد ثبت لي هذا الحب من وقوفي على برنامج تدريسه، فإن هذا البرنامج ملآن من العناوين التي تشمل على سيادة العرب، واستقلال العرب، ووحدة العرب، وغير ذلك من العبارات التي تدل على إخلاص مجرد ونزاهة ناطقة، وإذا قابلت بينه وبين أستاذ يهودي في جامعة ثانية يدرّس تاريخ الإسلام وحضارته، أدركت الفرق بين أستاذ مخلص للعرب وبين أستاذ حاول كل جهده أن يصرفني عن حضور درسه حتى لا أطّلع على رأيه في تاريخ الإسلام وحضارته.

قال لي الأستاذ الفاضل: لقد طلب الرئيس الشيشكلي إعادة اللاجئين إلى فلسطين، فهل تظن أن إعادتهم تحل المشكلة؟ فقلت له: إني لم أطّلع على تصريح فخامة الرئيس، وأنا منقطع عن أخبار بلادنا من شهرين، ولكن إذا صح أن فخامته قد صدر عنه هذا التصريح فيجوز أنه يعني بذلك أن إعادة اللاجئين إلى فلسطين قد تكون مفتاحاً لحل المشكلة، فقال: إني سمعت كثيراً آراء اليهود في قضية فلسطين، وأنا مهتم بسماع آراء العرب، فقلت له: إن قضية فلسطين بسيطة جداً، ومعقدة جداً إنها بسيطة، فإن اليهود اغتصبوا فلسطين اغتصاباً، فحل القضية لا يكون إلا بإعادة البلاد إلى أهلها،

وإن مسألة فلسطين معقدة جداً فإن اليهود بعد أن رأوا أنفسهم يتصرفون وحدهم في البلاد يصعب عليهم أن يعيدوا الحق إلى أهله، كما أن العرب يصعب عليهم أن يسكتوا عن حق مهضوم، ولكن الفرق بين التشدد في الباطل وبين التشدد في الحق واضح جداً، فقال إني مؤمن بذلك ولكن العرب مقصرون في أمرهم.

وقد كنت أريد أن أشرح في هذا المقال وجهة التقصير، ولكن هذا الشرح يستلزم مقالاً خاصاً، وأستطيع من الآن أن أشير إلى هذا التقصير إشارة صغيرة، فإن اليهود أحاطوا بالعقلية الأميركية الإحاطة كلها، وأخذوا يخاطبون الأميركان على مقادير عقولهم، أما العرب فلا يزالون يخاطبون الأميركان بلغة لا يفهمونها كثيراً وهي اللغة غير المحسوسة فالأميركان لا يؤمنون إلا بما تراه العين وتلمسه اليد، ولم تر عيونهم من العرب شيئاً ولم تلمس أيديهم شيئاً، أما هذه الاحتجاجات الشعرية فإنهم لم يألفوها.

هذا شيء مما دار بيني وبين أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة ولاية «واشنطن» وقد انتقل الحديث بعد ذلك إلى الكلام عن فخامة رئيس الجمهورية السورية، فقابل بينه وبين «أتاتورك»، وقبل أن أنصرف من عنده أعطاني كتاباً عن الصليبيين للأستاذ عزيز عطية للاطلاع عليه، فاتفق أني فتحت الكتاب فوقعت عيني على قصيدة فرنسية لشاعر من شعراء فرنسا على عهد الصليبيين يحرض فرنسة على جمع كلمتها لإنقاذ الأرض المقدسة فقلت

للأستاذ: اقرأ هذه القصيدة وليقرأها الأميركان كلهم في الليل وفي النهار، فإن أكثرهم أصحاب دين راسخ، والكنائس تملأ جامعاتهم ومدنهم، فيجب عليهم أن يكون اهتمامهم بإنقاذ الأرض المقدسة أشد من اهتمام العرب.

ولاية «أبير هو»
١٩٥٣/١١/١٠

داء العبقرية!

وقع نظري في إحدى المجلات على صورة «شاتوبريان» وهو واقف أمام الملك لويس الثامن عشر، يتسلم ما نسميه في عصرنا رسائل الاعتماد أو أوراق الاعتماد، وقد جعله الملك سفيراً له في «لندن».

لا أعترض على وقفة «شاتوبريان» أمام الملك، فإن التقاليد تقضي بالتزام غاية الأدب في مثل هذه الوقفات، وقد التزم «شاتوبريان» هذا الأدب أكمل التزام، وإنما إعتراضي على ولع رجل مثل «شاتوبريان» بالسفارات والوزارات.

لم يستطع «شاتوبريان» أن يكتم فرحه بالسفارة التي ألقيت إليه مقاليدها، وقد دل على هذا الفرح إسهابه في وصف ذهابه إلى «لندن» في مذكراته، حتى قيل أفما كان يستطيع أن يستر هذا الفرح بقليل من الخبث؟.

لا أرى بي حاجة إلى ذكر شيء من هذا الوصف، وحسبي إشارة «شاتوبريان» إلى ألقابه في رسائل الاعتماد، على أنه لم يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، فقد أعدوا له سفينة خاصة،

وأطلقت المدافع في وصوله إلى «دوفر»، ودعته سيدة إلى سهرة بإسم أجمل سيدات المدينة، وحيته الجماهير تحت الشبابيك، وجيء به إلى «لندن» على عجلة يجرها أربعة حصن، واستقبله في دار السفارة رجالها بموكب ثقيل، وقدموا إليه أسماء وزراء إنكلتره، والسفراء، إنه يحب هذا النوع من التعظيم حباً جماً.

وإذا انتقلنا إلى أدبنا وجدنا مَنْ أُولعَ بأشباه هذه الأمور على الرغم من عبقريتهم الخالدة.

هذا المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس، فقد ألح على كافور في تولي أمر من أمور السلطان، وصرح بذلك في بعض شعره فقال:

أبا المسك! هل في الكأس فضلٌ أناله ... فإني أغنّي منذ حين وتشربُ

وهبت على مقدار كفّي زماننا ... وكفّي على مقدار كفّيك تطلبُ

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني، وشغلك يسلبُ!

أما في عصرنا فإن رأينا شاعراً مثل شوقي نضر الله عظامه، يتحسر على «الباشوية» في مصر ولم يحظ بها، حتى كان إخوانه ينادونه في المجالس يا باشا! إرضاء له، لأن الملك ضن عليه بهذا اللقب.

والذي سخر من السفارات والوزارات والولايات، وهزأ من الملك بأجمعه إنما هو الجاحظ، معلم العقل والأدب، فقد ثبت ثلاثة أيام في ديوان المأمون، ثم ترك الديوان وانصرف إلى التأليف، سخر الجاحظ في مؤلفاته من الحياة كلها، وهزأ من أباطيل البشر

وأضاليلهم وأكاذيبهم، ولو بقي في ديوان المأمون لما استطاع أن يرخي العنان لعبقريته لأن المناصب تقيّد حريته، فلا بد له من بعض المراعاة والتحفظ، ولكن الحرية التي تمتع من نعمتها كل عمره الطويل أغنته عن كل مراعاة وعن كل تحفظ.

لا أدري ما حاجة رجل مثل «شاتوبريان» إلى السفارات والوزارات ، وهو الذي كان له على الأدب في القسم الأول من القرن التاسع عشر السلطان الأعظم، فحسبه أنه أدخل على الأدب الفرنسي الخيال واللون؟.

أم ما حاجة عبقري مثل المتنبي إلى ولاية يخضع فيها لأمر كافور وهو إذا تسلط على ملك لم يُبق على جسمه لحماً وعظماً ودماً، أفلا يرى أن بيتاً من شعره الخالد يهز مملكة كافور بحذافيرها؟.

أم ما حاجة شاعر مثل شوقي إلى «الباشوية» وهو الذي جعلت له يا جارة الوادي.. من الشهرة ما لم تجعله له الألقاب برمتها؟.

إلا أن رجال العبقرية لم يسلم بعضهم مما أصيبت به البشرية من الأمراض على وجه عام، فإن ركوب السيارات في عصرنا، والشرطي في جنب السائق، يفتح الأبواب ويغلقها، ونشر الصور في الصحف في ضرورة وغير ضرورة، والابتسامات المتخنثة في هذه الصور ملء الثغور، وطنطنة الأسماء وكأنها طنطنة الطنابير، وغير ذلك من صغائر الأمور وسفاسفها كل هذا لا يزال له أبلغ أثر في أوهام الناس.

فمتى يرسخ في أذهاننا أن أي أثر من آثار العبقرية الخالدة في العلم والأدب والفن أعظم من كل عظمة سخيفة؟.

١٩٤٤

زاوية أدب وشعر

خليل مطران نظم الشعر لترضية نفسه

كلمة الأستاذ: شفيق جبري في نادي الشبيبة

أقام نادي الشبيبة الكاثوليكية في دمشق حفلة تذكارية لشاعر الأقطار العربية المغفور له «خليل مطران». وقد تكلم في هذه الحفلة لفيف من الأدباء، فدرسوا حياة مطران وحللوا شعره، وفيما يلي ننقل لقرائنا الكلمة التي ألقاها الأديب الكبير الأستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب في الجامعة السورية:

قد يكون الشعر أليق بإحياء ذكرى خليل مطران، ولكن للشعر أوقاتاً يغيب فيها ويحضر، فإذا لم يحضرنا الشعر في مقام مثل هذا المقام فأرجو أن تنوب عنه كلمة وجيزة ليس فيها شيء من التحليل والتركيب، وإنما فيها خاطرٌ أو خاطران أوحت إلي بهما مقدمة ديوان خليل مطران.

وصف بعض الناقدين شعر خليل مطران فقالوا فيه إنه «شعر عصريّ» فلم يبال خليل مطران بهذا القول، ولكنه وضح مذهبه في الشعر من ناحية الموضوع ومن ناحية الأسلوب، فذكر في مقدمة

ديوانه أنه لم ينظم الشعر إلا لترضية نفسه أو لتربية قومه، متابعاً عرب الجاهلية في مجاراة الضمير ومراعاة الوجدان، موافقاً زمانه فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب، لا يخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والأساليب، ذلك مع الاحتفاظ جهده بأصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها إلا ما فاته علمه.

لقد افتخر خليل مطران بأن شعره عصريّ ينظر قائله إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر.

بهذا البيان الموجز عرف خليل مطران حقيقة «الشعر العصري» فذهب في شعره هذا المذهب، وتيقن أن ما أراده من الأغراض قد نفذ إلى قلوب قارئيه وأحدث فيها ما يبتغيه من الأثر.

وختم قوله بأن شعر هذه الطريقة إنما هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والخيال معاً.

لم أعرف بياناً أوجز من هذا البيان في توضيح طريقة شعر الشاعر، ولكن ماذا يريدون بقولهم «هذا شعر عصريّ»، فإذا كان الشعر العصريّ ينظر فيه إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها فلم يخلُ عصر من عصورنا

المتقدمة من شعر عصريّ، أو إذا أحببت أن أتقيد بعض التقيد قلت لم تخل عصورنا من شعر عصريّ، وما أظن أن المجال متسع للبسط في الإشارة إلى هذا النحو من الشعر العصري فإنا نجد في كثير من شعر شعرائنا المتقدمين في الجاهلية والإسلام ندور التصور وغرابة الموضوع، ومطابقة كل ذلك للحقيقة، وشفوفه عن الشعور الحر، وتحري دقة الوصف.

وإذا بحثنا عن هذه الصفات في سينية البحتري وجدناها كلها ووجدنا فيها أكثر منها، وكذلك إذا بحثنا عنها في أكثر الشعر الذي جاء فيه وصف جبل أو أسد أو ذئب أو فلاة أو أسطول فهذا الضرب من الشعر كان عصريّاً في حينه، وبيننا وبينه مئات السنين، إلا أن الذين يقولون في شعر بعض الشعراء إنه شعر عصريّ يريدون بهذا القول لغته وصوره.

فقد ينحرف بعض الشعراء العصريين في اللغة عن غير مقاصدها، فيضعون اللفظ في غير مواضعه، ويصبّون التركيب في غير قوالبه، أو يضيفون صفة إلى ما ينافرها من الموصوف، أو غير ذلك، وقد ينحرفون عن الصور فيجيئون في شعرهم بصور منكرة لم نألفها، فإن آذاننا وعيوننا لم تتروض على سماع أنغامها ورؤية ملامحها، ثم يفتشون في اللغة عن ألفاظ وتراكيب يصوِّرون بها هذه الصور ويعرضونها على عيوننا وآذاننا فلا يهتدون إلى ما يناسبهما، لأن اللغة توضع عادة لأمور يدركها، أهلها ويشعرون

بها ويذوقونها فتقع بسبب ذلك غرابة في الصور وألفاظها لا عهد لنا بمثلها.

هذا ما حمل بعض الناقدين على القول في طائفة من شعر شعراء هذا العصر إنه شعر عصريّ.

والشعراء الذين كانوا عصريين في أيامهم لم يقعوا في الذي وقع فيه بعض شعراء هذا العصر، فإن البحتري لما وصف إيوان كسرى استطاع أن يجد لهذه الصور التي أحدثها في شعره اللغة المناسبة لها من غير أن ينحرف عن مقاصدها أو يبعد عن مذاهبها.

ولكننا في هذا كله لا نستطيع أن نقول إن هذا الطراز من الشعر إنما هو شعر المستقبل، فإن الأذواق في الشعر لا تثبت على وجه من الوجوه، إن أبا الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس لا يزال شعره على أطراف الألسن، وفي حواشي القلوب، لأنه صوّر الخواطر التي تخطر ببال كل واحد من الناس، فقد تغلغل إلى قلوب البشر وأخلاقهم، فكشف الغطاء عن أحقادها وضغائنها، وصوّر حياة الناس المظلمة الكئيبة تصويراً سهلاً، فعلق شعره بالقلوب ونزل منها هذه المنزلة، ولكن كيف تكون هذه المنزلة إذا استفاضت الصوفية في البشرية في يوم من الأيام فصفى الناس أخلاقهم وطبائعهم، ونقوا صدورهم وقلوبهم، وطهروا وجداناتهم على نحو ما فعل الغزالي في أواخر عمره حتى قال فيه بعض المؤلفين: وبلغ من كمال صوفيته أنه نسي في أواخر عمره الأحقاد

والضغائن وأخذ لا يبالي بكلام الناس فيه.

ماذا تكون منزلة شعر المتنبي إذا وصلت البشرية في عصر من العصور إلى هذا الشكل من الصوفية؟ أفيظل الناس يقرأون الشعر الذي يصوّر حياة مظلمة كئيبة سوداء لا أثر فيها إلا للذم والضغائن والأحقاد؟ فيظل الناس يعجبون بهذا النحو من الشعر مهما تعظم قيمته.

ليس في الشعر شعر للحاضر والمستقبل، وإنما للشعر قواعد غير قواعد الحاضر والمستقبل.

إذا افتخر خليل مطران بأن شعره عصريّ فهو لم يفتخر بذلك لإنحرافه عن اللغة وروحها، وإنما استطاع على قدر الإمكان أن يؤلف بين الصفة والموصوف، وبين اللفظ وقرينه، بحيث لا يجد القارئ في هذا الشعر مخالفة لعبقرية اللغة، فإذا قال في بعض مطالع قصائده:

مشت الجبال بهم وسال الوادي ومضوا مهاداً مُزْنَ فوق مهاد

فإنما يقول قولاً لا تنفر عنه آذان الذين ألفوا هذه اللغة ووقفوا على أسرارها وإذا أردنا أن نبحث عن قدرة خليل مطران لزمنا أن نبحث عنها في هذا النحو من الشعر متجنبين شعراً قاله في بعض التهنئات أو في بعض المفاكهات.

إن قدرة خليل مطران تظهر في بعض هجومه على صور حديثة لا عهد للشعر العربيّ بها وفي توخيه إبراز هذه الصور في معارض

من القول قريبة من عبقرية اللغة.

ليس هذا المجال بمجال تحليل لشعر خليل مطران، وإنما هذه كلمة أقولها في إحياء ذكراه الطيبة، وأختمها بأن هذا العصر ما عرف شاعراً انسجمت محاسن أخلاقه ومحاسن شعره مثل خليل مطران حتى لهج الناس بخلق خليل مقدار لهجهم بشعره.

جريدة البعث

١٩٤٩/١٠/١٧

الأدب الثائر

اختلفت الأقوال في مؤتمر الأدباء الأخير، وسنحت الفرصة للتقريظ من جهة وللانتقاد من جهة ثانية، وآخر ما قرأته في هذا الباب مقال الأستاذ نسيب الاختيار في (النقاد) ولست أتردد في الاعتراف بأن صاحب هذا المقال كان مثله كمثل الطبيب البارع الذي اهتدى إلى مكمن الداء من أول نظرة.

تعاني بلاد العرب في هذه الأيام من الشدائد ما تعاني وتفاجئ من المشاكل ما تفاجئ، سواء ذلك في خارج البلاد وداخلها، أمّا في خارج البلاد فإنها تتنازعها دول شتى تحاول كل واحدة منها أن تجيء بها إلى ظلالها، ويقف على أبوابها عدو لا راحة لها إلا بالقضاء عليه، وأما في داخلها فقد نشأت أفكار جديدة ومشاعر جديدة، نشأ مجتمع جديد تحار في آفاقه فلا تدري السبيل الذي تسلكه فيه، من مظاهر هذا المجتمع فكرتان متزاحمتان: فكرة التقدمية وفكرة المحافظة على الأوضاع القديمة، ولكل من هاتين الفكرتين أصحاب يدافعون عنهما ويسحبون الناس إليهما، وتختلف أساليب الدفاع والسحب.

هذه على سبيل الاختصار حالة بلاد العرب في هذه الأيام ، فما

صلة الأدب بمثل هذه الحالة؟ وما يستطيع أن يفعله الأدب فيها؟ هذا ما نبه عليه الأستاذ الاختيار في مقاله السديد.

أصبح من بدائه الأمور أن الأدب إنما هو صورة الحياة في خيرها وشرها، في حسنها وقبحها، فهو الذي يذيق الناس حلاوة هذا الخير ويجنبهم مرارة هذا الشر، وهو الذي يفتح عيونهم وقلوبهم حتى يأنسوا بهذا الحسن ويستوحشوا من هذا القبح، ولكن الأدب في بلاد العرب حائر حيرة البلاد نفسها، فلا نكاد نقرأ كتاباً يصور فيه وضع من أوضاع مجتمعنا، وقد زارني من أيام أميركيّ صاحب دار نشر في نيويورك وسألني عن طائفة كتب تصور حياتنا أصدق تصوير لترجمتها، فشعرت بشيء من الخجل لما قلت له: إني لا أعرف كتاباً من هذا الشكل.

لقد كثرت بين ظهرانينا كتب أجنبية معربة تصف حالات خاصة في بلاد أصحابها وإذا كانت هذه الكتب تفتح من جهة عقول الناس فترى أعينهم مظاهر البؤس والشقاوة فتثور قلوبهم على أهل الطمع والجشع فإنها من جهة ثانية تزيد في حيرتنا لأننا نريد أدباً خاصاً بنا يفتح عيوننا وقلوبنا حتى نشعر بأمراضنا، وإذا عجز الأدب عن أن يرى داء الأمة، ويصف الدواء فما أظن أن شيئاً غير الأدب يستطيع أن يسد هذا المسد، ما أظن أن شيئاً آخر غير الأدب يستطيع أن يرتفع بنا من الدرك الأسفل إلى الدرج الأعلى، فأين الأدب الثائر؟.

إذا فتشنا عن أصول نهضتنا القومية أو الاجتماعية في أوائل عصرنا الحديث فمن أقبح العقوق أن نغفل عن ذكر الأدباء الذين غرسوا من قرن كامل أصول هذه النهضة، في مقدمة هؤلاء الأدباء فارس الشدياق، وإذا طارت شهرته في الوقوف على اللغة وخصائصها، فإني لا أكاد أجد له فائدة في هذا الوقوف تعادل فائدته في ثورته في أدبه على الترك قبل إقامته بعاصمتهم، ورضاه عنهم، وفي ثورته على جهل الحكام في عصره وعلى بعض أخلاق رجال الدين، وعلى زهد الأغنياء في الثقافة، وعلى بعض العادات في المآكل والمشارب والمآدب، ولا أكاد أجد له فائدة في التبحر في اللغة تعادل فائدته في تحريض الناس على الرحلات، والوقوف على عادات الأمم وأخلاقهم، أو في تصويره حالة الفلاح والفقير، وما يقاسيه الفلاحون والفقراء الذين لولاهم لبطلت حركات الأغنياء.

أفليس من العجب أن يفطن أدباؤنا من قرن إلى مهمة الأدب في المجتمع وأن نسهو عن هذه المهمة في زمن اختمرت فيه العقول اختماراً لا نسبة بينه وبين اختمارها في الماضي؟.

من أجل هذا أهنئ نسيب الاختيار بمقاله وقلت في نفسي: لماذا لم يرد اسمه في جملة الذين اجتمعوا من أسبوع لتأليف جمعية أدبية؟.

النقاد

١٩٥٦/١٠/٢٧